الإيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية

محمود عبد الغني

شاعر وباحث

1- الزيف ينافس الحقيقة :

يمكن اعتبار السيرة الذاتية من أكثر الأجناس الأدبية عرضة لكل أشكال سوء الفهم. فهي مفهوم ملتبس غالباً ما يكون ضحية للغموض الذي عرض به، وضحية لحداثة سنه وللنقد الذي اتخذه موضوعاً له (1)، ومحط هجمات من طرف المشنعين الذين يرون أن السيرة الذاتية بدأت تغزو الحياة الأدبية وتنافس أجناساً "أدبية نبيلة"، حسب زعمهم، مثل الرواية، المقالة والشعر(2)، مثلما تنافس النقود المزيفة النقود الحقيقية. إذن، تعد السيرة الذاتية حسب هؤلاء، بمثابة "أدب مزيف" ينافس "أدبًا حقيقيا". وهذا تحليل سطحي يختزل الإشكالية الأدبية في مجرد جنس أدبي ينافس جنسا أدبيا آخر، وفي مجرد تجدد نشاط الأنانية التي تزعج المتلقي والوسط الثقافي. في حين أن العقل السليم سيتدرج في التحليل إلى أن يصل إلى نتيجة أن شيوع جنس السيرة الذاتية وباقي الكتابات الذاتية والشخصية يرجع بالأساس إلى نهضة القيمة التعبيرية للفرد وتجدد نشاط أل"أنا" والرؤية الفردية والتعبيرات الذاتية.(3)

وليس مصدر الإيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية(4)القراء أو النقاد والمنظرون فقط، بل كتاب السيرة الذاتية أنفسهم. فمن فريق النقاد والمنظرين يقف مثال الناقدة الأمريكية "كات هامبورغر" (Kate Hamburger في كتابها الشهير "منطق الأجناس الأدبية" (Logique des genres littéraires) الذي لا تقدم فيه أي تنويه للسيرة الذاتية، بل إنها تستثنيها من دائرة الأجناس الأدبية "بسبب وفائها لمفهوم المحاكاة في الأدب".(5) إضافة إلى اتهام الخطاب السير ذاتي "بالعجز الجمالي لأنه بانتمائه إلى اللغة النثرية، فإنه يهدف إلى قصدية تواصلية بسيطة. وهذا ما يفسر غيابها (السيرة الذاتية) عن الشعريات الكبرى القديمة والكلاسيكية، ثم تلقيها السلبي من طرف المنظرين، نقاداً وكتاباً، خصوصا الذين يعتبرون أن السيرة الذاتية ليست من الفن في شيء أو أنها تستجيب لحاجيات مذمومة، منذ "باسكال" الذي اعتبر أنه "مشروع بليد أن يقوم" مونتاني" (Montaigne) برسم ذاته"، إلى القراء الذين أساؤوا فهم

"الاعترافات" ل "روسو"، والذين وجدوا من غير المفيد أن يحكي الواحد منا طفولته. منذ ذلك الحين تم تكوّن ما أسماه فيليب لوجون "الإيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية".(6)

2- أصل غير تخييلي :

وترجع هذه "السمعة السيئة" إلى الأصل غير التخييلي للسيرة الذاتية التي ترتبط بالمرجعي أكثر من الخيالي. هذا إلى جانب المشاكل الجمالية والذهنية التي تطرحها، والتي "تجعلها تفقد الثقة في عيون جمهور ميال إلى اختزال الأدب إلى لعبة بسيطة تمثل الرواية أعلى أشكالها. غير أن المنظرين لم يعتدوا أبداً بنوع ينظر إليه في الغالب على أنه هجين.

فالسيرة الذاتية لا تنتمي إلى ما يسميه "جيرار جينيت " في عمله "التخييل والأسلوب" (Fiction et diction) جنساً "أدبيًا بنيوياً". وهنا يكمن السبب الرئيسي في اعتبار السيرة الذاتية تفتقد إلى الطبيعة الخيالية(7)".

أما الأخطاء التي يرددها المشنعون على الأدب الشخصي عموماً والسيرة الذاتية خصوصاً فهي:" النرجسية، الوقاحة(8)، سرد النوادر، غياب المنفعة، التنكر للحقيقة والجمالية السطحية"(9).

تكمن المفارقة الغريبة في أن مثل هذه التهم تنبعث في الغالب عن كتاب مارسوا كتابة السيرة الذاتية. وهذا هو حال "روسو" "الذي سجل غياب المنفعة من وراء سرد الأحداث الصغيرة في طفولته، أو "أندري جيد" (André Gide)، الذي كان ينتقص من قيمة يومياته التي كان يوجهها للجمهور "كغذاء ثقافي في أثناء حياته !". أو "لويس ألتوسير" (Louis Althusser) في سيرته الذاتية "المستقبل يدوم طويلا" (L'avenir dure longtemps)، التي كان يعتبرها أدنى درجة من إنتاجه الفكري، على الرغم من كونها مشروعا أساسيا رسم قدر العصاب النفسي الذي قاده إلى قتل زوجته، حيث كتب مستطردا إنه لا يحب السيرة الذاتية وأن كتبه لا تنتمي إليها"(10).

3- اعتراضات فكرية وجمالية :

يختزل "توماس كليرك" (Thomas Clerc) هذه الاعتراضات إلى انتقادات لفكرية وإيديولوجية من جهة، وجمالية من جهة أخرى. أما الانتقادات الفكرية والإيديولوجية فيمكن اختزالها في الأنانية التي أصبحت انتقادا ثابتا موجها إلى السيرة الذاتية. "وكما يوضح "فيكتور هيغو" في مقدمته الشهيرة ل"تأملات" (Contemplations) : "إننا نتذمر أحيانا من الكتاب الذين يقولون "أنا". تكلموا عنا،

نصرخ في أوجههم". والحال أن مؤاخذة الكاتب على أنانيته ليست لها أبدا أية نتيجة ما دامت السيرة الذاتية كتابة عن الذات. ولكي يكون النقد منتجا عليه الوصول إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقاً أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية، وهذا هو الحال عندما يكون التلفظ ناقصاً، أي عندما لا يكون موضوعا لأي إبداع فعلي.

لكن الحديث عن الذات ليس تلفظا بخطاب انطوائي، بل عل العكس تأسيس لتواصل بين المؤلف والقارئ : " عندما أحدثك عن نفسي، فإني أتحدث عنك. كيف لا تشعر بذلك؟ آه! إنه أحمق من يصدق أنني لست أنت!"(11).

إن كل سيرة ذاتية جديرة بهذا الاسم "تدرج في مشروعها صورة الآخر، وتخضع لاستراتيجية بلاغية للتواصل"(12). ويمكن أن نلخص ذلك في موقف "جان بو ل سارتر" الذي يذهب في نفس الاتجاه : "إننا نكتب دائماً من أجل الآخر(13).

وبخصوص تهمة "الوقاحة" التي ألصقت بعدد من السير الذاتية الجريئة والوفية لمرجعها، يمكن أن نستشهد بالروائي "جوليان غرين" (Julien Green) الذي أعلن أن عرض حياته الخاصة ليس له أية منفعة : "لماذا كل هذه التفاصيل حول الآلام الجسدية في يوميات خاصة؟ ففي الحب الجسدي كل الناس يتشابهون (...) وإنما في الروح يختلف واحدنا عن الآخر. إذن تعتبر مغامرة الروح المهمة في اليوميات، لأنها دائما وحيدة"(14). وقد اعتبر الناقد " "توماس كليرك" " أن هذه النظرة قابلة للنقاش مادام لا وجود لموضوع جيد وآخر سيئ في الأدب، خصوصاً وأن" جوليان غرين" لا يتأمل سؤال التلفظ ولا سؤال الجنس الأدبي،"رافضاً قبول أن مشروع رسم الذات يتضمن نزع الأقنعة الاجتماعية (...). ونتيجة لذلك، يوجد عدد كبير من السرود التي نعتت بالوقاحة من طرف نقاد لهم ثقل أدبي وفكري (بورخيس، برونتيير...) أو من لدن كتاب السيرة الذاتية الذين يتحفظون أمام البوح الجنسي"(15).

يندرج النقد الذي وجه بقوة إلى السيرة الذاتية في سياق النقد الجمالي. ف "جورج غوسدروف" مثلاً يتصورها "وثيقة من النوع التاريخي والسيكولوجي (وهذه هي حقيقتها) وليس عملاً فنياً : " لا تكون كتابات الذات أدبية إلا بشكل ثانوي، وبالمصادفة"(16). تعتبر هذه النظرة الأدبية الكلاسيكية السيرة الذاتية بمثابة تراجع جمالي. ويعتقد العديد من الدارسين أنها تراجع عن المكاسب الجمالية والفنية للرواية مثلاً. وفي هذا الإطار لابد من التنبيه إلى ضرورة التمييز بين السير الذاتية التي ألفها الكتاب وبين تلك التي أنتجتها شخصيات اتخذت السيرة الذاتية وسيلة وليست هدفًا. وقد أكد "فيليب لوجون" أن العديد من اليوميات الخاصة التي كتبتها فتيات فرنسيات في القرن التاسع عشر

ليست كلها من الأعمال الجيدة، واعتبرها مجرد لائحة من "العويل التافه". أما السيرة الذاتية التي يضعها الكاتب فتتميز بقوة الأسلوب والبناء والتأثير الجمالي. ويحدث أن يضع أشخاص، ليسوا كتابًا بالمعنى الدقيق للكلمة، سيراً ذاتية مثيرة للاهتمام(17). ينبغي ،إذن، في إطار الحديث عن المردودية الجمالية لبعض نصوص السيرة الذاتية التمييز بين نصوص الكتاب وبين نصوص الهواة الذين يعطون الأهمية لتجربتهم وليس للقيمة السردية. لذلك نجد مجموعة من الشخصيات تستعين بكتاب أثناء كتابة اعترافاتها الشخصية حتى لا تنقل للجمهور نصوصاً سيئة الصياغة.

4- إسعاد القراء، إزعاج الكتاب :

إن للخطاب السير ذاتي شروطاً عدة، جمالية وليست فقط من النوع التاريخي. ولذلك فليس من المؤكد أن السيرة الذاتية جنس ديموقراطي يتساوى فيه الجميع . "فالمسافة شاسعة بين محكيات الحياة التي يكتبها الهواة، ومذكرات الكتاب وبين النصوص التي يكتبها، بهذا القدر أو ذاك، نجوم الإعلام. لذا لا يستطيع كل الناس كتابة سيرهم الذاتية، وهذا ما تؤكده "ميرنا فيلسيك – كافينيز (Mirna velcic-carvinez) في مقال نافذ لها: "لكتابة سيرتك الذاتية يجب أن يكون لك الحق في ذلك "(18).

ويرى الشاعر" بول كلوديل" (Paul Claudel) أن كتابة السيرة الذاتية تفقر الخيال. وينتقد بشدة الإحساس النوستالجي الذي يوجد لدى من كتبوا سيرهم الذاتية مثل "شاتوبريان". إنهم حسب تعبير "كلوديل" يعيشون في "المقعد الخلفي"(19). فهذه الاستعارة تشير إلى الذين يعيشون في الماضي. وكلوديل يفضل "المقعد الأمامي" الذي يتجه به إلى المستقبل. فهناك حسب "كلوديل" دائما، أناس يرون في الماضي زمنا يبتعد، وآخرون ينظرون دائما إلى المستقبل وهو يقترب. فقرر تحديد موقفه، وبذلك " انتقل من المقعد الخلفي إلى المقعد الأمامي " (20).

يرى كل الذين كتبوا سيرهم الذاتية و رفضوا إضفاء أية قيمة جمالية أو فكرية عليها (وهذا ما يثير الدهشة) أن الماضي والطفولة والشباب كلها مراحل تصبح سجنا إذا ما أطلنا التأمل والتفكير فيها أو كتبنا عنها بهوس(21). إن اللعنة التي ألصقت بالسيرة الذاتية قادمة من خلط خطير بين "الأنا" والأنانية. فكلاهما تعبير عن الأنا الفردية، لكن الأنانية تعبير مرضي عن الذات لا يستطيع تغيير شيء في العالم أو في تلك الذات.

تزعج السيرة الذاتية الكتاب وتسعد القراء(22)، خصوصاً إذا ما تضمنت محكيات عن طفولة الكاتب الذي يفضل ذكر النسب الشريف ومسقط الرأس، ثم ينتقل بشكل مفاجئ إلى سنوات النضج والفعل والمشاركة في صنع الوقائع والحوادث، و لم لا التواريخ.

تعتبر الأنانية التهمة الأكثر تردداً على أقلام كل من كتب ضد السيرة الذاتية. و"الحال أن مؤاخذة الكاتب على أنانيته ليست لها أبداً أية نتيجة ما دامت السيرة الذاتية كتابة عن الذات. ولكي يكون النقد منتجاً يجب الوصول إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقا أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية(...) لا ينطوي الحديث عن الذات التلفظ بخطاب انطوائي، بل بالعكس هو تأسيس لتواصل بين المؤلف والقارئ"(23). وبذلك يكون نقد الأنانية مفتقداً إلى التماسك، بل وإلى الموضوعية "فأنانية القارئ ليست أقل من أنانية المؤلف مادام الكتاب وجد لأجله ومعه".(24)

تتوجه السيرة الذاتية، عكس ما يفترض قبليا المشنعون عليها، إلى عالم القراءة، ومن أجل التأثير في القارئ و إنشاء حوار معه. إن الحديث عن الذات مفيد للقارئ، لنذكر بسارتر في تصوره الديموقراطي للسيرة الذاتية (وللأدب) الذي يؤكد فيه: "إننا نكتب دائماً من أجل الآخر"(25).

وكما جاء في كتاب "توماس كليرك" المذكور سابقاً "الكتابات الذاتية" (les écrits personnels) (26)، حيث يعتبر مرافعة شيقة اختار فيها المؤلف أن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فإننا يمكن أن نحمل جميع أنواع النقد التي وجهت للسيرة الذاتية خصوصاً، ولأنواع الأدب الذاتي عموماً، إلى نوعين: نقد جمالي وآخر فكري وإيديولوجي. أما النقد الجمالي فيوجه في الغالب للسيرة الذاتية. يقول "جورج غوسدورف" في نظرة أدبية كلاسيكية: "لا تكون كتابات الذات أدبية إلا بشكل ثانوي، وبالمصادفة"(27). إن السيرة الذاتية كما يرى غوسدورف تشكل تراجعاً جمالياً. دون أن يميز، من الناحية الاجتماعية،"بين السير الذاتية التي ألفها الكتاب وبين تلك التي تكون من إنتاج شخصيات تعتبر السيرة الذاتية وسيلة وليست هدفاً"(28). إن السيرة الذاتية التي يكتبها الكاتب تدخل ضمن فضائه الجمالي والفكري، فتكون مطبوعة، مثل نصوصه السابقة، بالتنسيق الجمالي للغة المستعملة. فالوعي باللغة موضوع جمالي تكون له قيمة قصوى. في حين أن الهواة لا ينتبهون للقيمة السردية في نصوصهم، لأنهم يفتقدون إلى الوعي الأدبي والجمالي، فيعطون كل الأهمية لسرد التجربة. الشيء الذي يفقد السيرة الذاتية طابعها النصي.

أما النقد الفكري والإيديولوجي فيجمله "توماس كليرك" في كون بعض النقاد والكتاب يؤاخذون على السيرة الذاتية نزعتها الأنانية، لأنهم يفهمون أن كل كتابة عن الذات تعد بالضرورة

كتابة تعاني من الأنانية. في حين أن النقد المنتج، يلاحظ "كليرك" بحق، من يتوصل إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقا أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية. إذن فالملفوظ الصادر عن الأنا لا يكون بالضرورة ملفوظًا انطوائيا. وإذا كان من الضروري الحديث عن الأنانية في هذا الباب فإنها ستكون أنانية القارئ الذي وجدت السيرة الذاتية لأجله ومعه.

1-توماس كليرك، الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة : محمود عبد الغني، منشورات الموجة، الرباط،2003، ص. 5.

2- Jacques Lecarme, Eliane Tabone Lecarme , l'autobiographie, op. Cit, p.9.

3- ibid p 9

4- "الإيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية" تعبير أطلقه فيليب لوجون واتبعه فيه مجموعة من الباحثين في السيرة الذاتية مثل "جاك لوكارم إيليان لوكارم – تابون" اللذان عنونا فصلا من كتابهما "السيرة الذاتية" بنفس العبارة

5- الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م.س. ص. 23.

6- نفسه، ص. 39. 7- نفسه، ص. 38.

8- وهي التهمة التي ألصقت بأشهر سيرة ذاتية في الدب المغربي الخبز الحافي لمحمد شكري، والتي بموجب تلك التهمة تم منعها من التداول طيلة سنوات.

9-- الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م.س. ص. 39.

10- نفسه، ص : 40. 11 - نفسه، ص . 43 12-نفسه، ص. 43. 13- نفسه، ص. 43.

14- Coll. bibliotheque de la pléiade, 1985, p.260. Gallimard Julien Green , journal, ed.
ذكره "توماس كليرك"، ص. 44.

15-- نفسه، ص. 44 – 45 . وكمثال نموذج الكتاب الذين تحفظوا في سيرهم الذاتية أمام اعترافات البوح الجنسي نذكر"حورخي لويس بورخيس" في سيرته الذاتية "سيرة ذاتية"، ترجمة –عبد السلام باشا، ميريت، القاهرة،2002. ومن الأمور التي نذر ذكرها في سيرته الذاتية طبيعة علاقته بالمرأة وعزفه عن الزواج حتى تجاوز الستين من عمره.

16- الكتابة الذاتية إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س. ص. 45.

17- نفسه، ص. 46. وانظر أيضا : Ph. Lejeune , Le Moi des demoiselles, ed. Seuil, 1995.

18- الكتابة الذاتية، إشكالية التاريخ ومفهوم، م.س. ص. 38.

19- J. Lacrame, E.L. Tabone , *L'autobiographie*, op. cit , p . 11.

20- Ibid., p. 11

21- وهذا هو موقف الشاعر السوري ميشيل ليريس (Michel Leiris)، خصوصا في كتابه L'âge d'homme . ف "ليريس" بقي دائما ثائرا في أقصى اليسار رفقة "سارتر" و "بوفوار". في حين أن السيرة الذاتية لا تقع في أقصى اليسار، وليس فيها شيئا ثوريا". ونحن نرى أن ثورية السيرة الذاتية، إذا حق أن هناك جنسا أدبيا ثوريا وآخر محافظا، تكمن في الإعلاء من شأن "الأنا" داخل مجتمع ينبذها.

22- ليس كلهم ، 23 - الكتابة ، إشكالية المفهوم والتاريخ م س ص 43 ، 24 - نفسه ص 3 ، 25 – نفسه ص44

26- Thomas Clerc , *Les écrits personnels*, ed. Hachette, coll, ancrages, 2001

27- ibid p 39 28- ibid p 39